كلمة بين يدىّ

الطبعة الثانية

ظهر هذا الكتاب الصغير (رواد الشعر الحديث فى مصر) عام ١٩٣٤ وأنا بعد فى طور الشباب الأول ، فهو يمثل المرحلة الأولى من التطلع والاستشراف على عالم الأدب والشعر وقد اشتمل على أربع دراسات لأربعة من الشعراء الأعلام فى مصر والعالم العربى حين ذاك ، وهم :

خليل مطران ، عبد الرحمن شكرى ، أحمد زكى أبو شادى وعبّاس محمود العقاد .

ولا يزال كلٌّ منهم بعد انصرام هذه السنوات الطوال عملاقاً من عمالقة الشعر والأدب فى العصر الحديث .

ولم يكن عجبًا أن يثير هذا الكتاب لدى ظهوره الكثير من المساجلات الأدبية والمناقشات الحامية فى المجتمعات والأندية ، وعلى صفحات الجرائد والمجلات ؛ والحق أنه أحدث آثاراً عميقة فى نقد

الشعر العربى الحديث على ضآلة حجمه .

ولقد أشار إليه النقّاد ، ورجع إليه الباحثون وطلاّب الأدب ولا يزالون . فهو من تلكم المراجع المعتمدة ، ولذلك آثرتُ أن يُنْشَر على الناس مرَّةً أخرى .

وقد أضفت إليه مقالين من أمتع المقالات التى نُشرت عنه . أو بسببه . حين ذاك . أحدهما للشاعر المفكر الكبير الأستاذ عباس العقاد . الذى أكنُّ له كل الحب والتقدير . ودليلى على ذلك عنايتى بدرسه منذ هذه السنوات الطوال . وهو لا شكّ من أعظم شعراء العربية فى العصر الحديث .

أما المقال الثانى فهو بقلم الشاعر الكاتب القدير الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ، وهو مقال يتسم بالطرافة والرّقة والزهد والبعد عن التشامخ والغرور . ويعتبر المقالان وثيقتين تاريخيتين ، وفى نشرهما فائدة محققة للحركة الأدبية الحديثة .

وبعد ،

فآمل أن يكون فى صدور هذا الكتاب مرة أخرى فائدة للأدب والشعر فى مصر والعالم العربى .

والله الموفق .

القاهرة فى إبريل ١٩٨٢ — د مختار الوكيل

بيان وتمهيد

السبب فى الجمع بين هؤلاء الشعراء الأربعة فى كتاب واحد ، هو أنهم مهدوا لنهضة الشعر الحديث فى هذه الديار تمهيدًا قويًّا ، وليس السبب أنهم يتشابهون فى المبدإ أو الثقافة ، أو يتكافئون فى الطاقة الشعرية .

ولقد آثرنا جانب عرض حسناتهم الشعرية مع إشارة لطيفة إلى بعض ما يؤخذ عليهم ، حتى يتم لعملنا ما نرجوه من الترفع عن دناءة السّعار الأدبى الذى يسمونه فى مصر بالنقد .

وغاية متمنانا أن يكون من هذا الكتاب الصغير صورة صادقة تفيد النشء العربى كما يرتكن إليها المؤرخ الأدبى إذا شعر بحاجة إلى ذلك .

القاهرة فى ١١ أغسطس سنة ١٩٣٤

مختار الوكيل

واجب الناقد

كنت أتوق منذ بعيد لأن أظفر فى هذه اللغة بنقد أدبى صادق ، ولكن أبى القدر علىَ الظفر بهذه الأمنية حتى اليوم . لست أنكر أننا نعيش فى زمن ارتقت فيه الآداب ارتقاء عظيمًا ، واتسعت فيه المدارك اتساعًا شاسعًا ، وأقبل الناس فى هذه الديار وفى سواها من أقطار الشرق العربى على الثقافة والتحصيل فى يقظة ونشاط عجيبين ، واتسع المجال أمام العاملين الصابرين على الدرس والمذاكرة من عشاق الآداب والفنون ، وأصبح بين ظهر أينا اليوم أدباء أفاضل ، وشعراء حقيقيون بهذه التسمية ، وفنانون نفاخر بهم بلدان الغرب المتفوقة فى الحضارة . بيد أن هذه النهضة المباركة لم تثمر ثمرها المطلوب ، ولم تتم نعمتها على أهل الآداب والفنون فى هذا البلد ، إذ لا يزال فن النقد الأدبى متأخرًا متخلفًا عن فنون الأدب الأخرى . ولعله من الصدق والإنصاف أن نقول فى هذا الصدد إن الظروف لم تُهيأ بعد لوجود النقد الأدبى الخالص : فالأديب الذى

يقوم بنقد ثمار المطابع عندنا فى صحيفة من الصحف لا يتناول فى الغالب من الصحيفة أجرًا على النقد الذى عنى به ، بل يتطوع به من تلقاء نفسه ، أما إذا كان محررًا بتلك الصحيفة فهو يقوم بعملية النقد بالرغم منه ، وقد تضطره ظروف عمله إلى أن يتصدى لنقد كتب لا يعلم عنها شيئًا ، وهو فى هذه الظروف لا يؤدى مهمة الناقد الصادق ، وإنما يمثل دور المحرج المضطر . هذا فضلاً عن ضآلة مرتبه الذى يتقاضاه من الصحيفة . وليت شعرى كيف تريد أن تجعل منه القاضى الفاضل الذى يقول كلمته الفصل فى أمور الأدب وهو فى طخياء من الفاقة والتشرد ، لا يدرى هل سيصبح فى الغد عالة على فضل منقوده الذى قال فيه كلمة الحق والعدل أولا ؟ ! فالناقد الأدبى فى هذه الديار مضطرب العيش مقلقل الأفكار ، مهدد على الدوام بالضنك والأزمات ، وكل هذه الأمور من شأنها أن تغير من أحكامه تغيرًا كبيرًا ، وتبعدها عن جادة الصواب . وأنا أعذر الناقد الأدبى وأعنفه : أعذره لسوء ظروفه ، ولتجهم الحياة فى وجهه ، وألومه كذلك على تردده فى قول ما يعتقده الصواب ، فالنقد الأدبى السامى لا يقصد به إلى إرضاء المنقود أو إرضاء جمهرة القارئين ، وإنما المقصود به النهوض بالأدب وحث المنتجين من الأدباء على الإجادة والعناية بآثارهم التى هم بسبيل نشرها على الناس ، والناقد

الأدبى السامى قاض عادل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا يرهبه وعيد ، ولا تطمعه الوعود ، قد تنزه عن صغائر بنى جلدته ، وارتفع بروحه عن مادية العيش ، وتناسى الأحقاد وعمى عن الضغائن والخصومات ، وتجرد من صغائر إنسانيته ، وجاد من فوق الزمان بكلمة الحق التى تهدى سواء السبيل . وليكن رائد الناقد الإخلاص والإصلاح جهد الطاقة ، حتى يكون عامل بناء وتوطيد ، لا أداة هدم وتخريب .

والآداب لا تزدهر ولا تسمو إلا بالنقد المشجع الباسم المتفائل ، ولا تموت وتذوى إلا بطعنات الخناجر الحادة ، وهبات العازات السامة ، وأين هذه من النقد السليم المربى الكامل ؟

يجب على الناقد أن يشجع المبتدئ الشادى ، ويطرب للمجيد ، ويصفق للنابغ ، ويشيد بالعبقرى ، فهذه هى وظيفته الحقيقية ، وهو فى هذا يكافئ المتجين من الأدباء المكافأة التى يستأهلونها ، فهو صديق للأدباء ، وليس بخصيم ولا بعدو لدود !

ومن واجبه كذلك أن يقيل عثرة العاثر ، ويرشد الضال فى رفق وعطف ، ويقود العاجز فى صبر وأناة ، ويعلّم الجاهل فى تواضع وهدوء ، ويكون فى كل حال الأخ الخالص ، واليد الآسية الرقيقة ، والصديق المتواضع المجهول .

ويمكننا أن نظفر بالنقد الأدبى الصادق اليوم فى الصحف والمجلات الفرنجية الممتازة ، ذلك لأن الناقد الأدبى لكل صحيفة أو مجلة راقية هناك يؤجر أجرًا يضمن له وسائل المعيشة ، ويجعله فى هدوء ودعة لا يخاف قولة الحق ، ولا يخشى أن ينحى عليه قوم باللائمة ، وما دام هو لا يعنى سوى الإصلاح والخدمة الأدبية المجردة عن الهوى والغرض فهو فى غالب الأحوال يرضى الجمهور ويقنع المنقود .

أما عندنا ، فما يزال النقد الأدبى متأخرًا كما قدمت ، فلا قواعد مضبوطة يسير الناقد على هديها ، ولا رغبة فى خدمة الأدب خدمة بريئة من الأغراض ، وإنما هنا يسيطر على الناقد الصداقات والعداوات : فالناقد ينظر إلى المنقود ، فإذا كان من شيعته كال له المدح ، وأغدق عليه الإطراء إغداقًا ، ونعته بنعوت العبقرية بدون حساب ؛ وإذا كان من عدوه قلب له ظهر المجن ، وحطّم أثره الأدبى تحطيماً ، ولطّخ نقده بصندوق من السباب والشتائم المقذعة ، محفوظ برمته لكل مناسبة من هذا الطراز !

ولقد قرأنا كتباً فى النقد الأدبى فى هذه اللغة ليست من النقد الأدبى فى قليل ولا كثير ، وإنما هى معارض للسخائم والشتائم والأحقاد التى يجب على الناقد الأدبى الصحيح أن يترفع عنها .

ولقد عمدنا فى هذه الفصول إلى نقد بعض شعراء هذا الجيل نقدًا صادقًا غير متأثرين بصداقتنا لنفر منهم . راجين جهدنا أن نخدم النقد الأدبى الصحيح خدمة خالصة ، مؤملين أن يكون من هذه الفصول رائدًا للنقد الأدبى الصحيح فى هذه اللغة المحبوبة .

ولعل من المفيد أن نذيع هنا أننا لم نتأثر بمذهب خاص من مذاهب النقد التى ألفها الناس ، وإنما قصارانا فى هذه الفصول أن نحكم ذوقنا واطلاعنا الأدبى تحكيمًا مستقلاً عادلاً .

فى الشعر

فى اللغة العربية كثير من الشعر ، ولكن الذى يستحق العناية ويستأهل الدراسة منه يسير فما كل كلام منظوم يعد من الشعر ، فى حين قد يحسب بعض النثر شعراً . وأنت لا تقرأ كتاباً صنّفه الأدباء فى القديم لم يحو شيئًا من الشعر ، بل تجد فيه كثيراً منه . وأحسب أن العرب كانوا لا يعرفون الأديب إلا شاعراً فى أغلب الأحوال . أما الناثر فما كانت له مكانة على ما أظن فى عصور البداوة الأولى ، وقد يتعب المرء فى البحث عن الشعر الحقيق بالقراءة والدرس وقد يلتوى عليه الأمر ويضل السبيل .

ينشد المرء من قراءة الشعر لذة روحية وهزّة عاطفية ، ولكن ليس هذا كل ما هنالك ، فالشعر يعقب ألمًا فى روح قارئه . والشعر الحقيق بهذا الاسم ليس من أمور اللهو والتسلية العاطفية ، بل هو من المسائل التى يكدّ من أجل فهمها الذهن كالرياضة والهندسة . والشاعر فى هذه الأحوال لا يعالج القشور التوافه وإنما يدخل إلى

اللباب باحثًا عن جوهر الحياة جهده ، فأحيانًا يبلغ قصده وأحيانًا يخفق ، ولكنه فى الحالين الباحث الشريف المجتهد .

وقراءة الشعر على هذا الأساس تستوجب الانتباه الكلى ، لا انتباه العقل فقط ، وإنما انتباه الشعور ويقظة العواطف كذلك . فإذا حاولنا أن نفهم الشعر بعقولنا ومشاعرنا جميعًا فقد خطونا خطوة جديدة نحو نقد الشعر نقدًا علميًّا صحيحًا .

وأظن أننا على ضوء هذه النظرة العلمية الجديدة سنصطدم فى الغالب بالكثير من شعر هذه اللغة فى القديم والحديث ، ونعلم أننا سنغضب الكثيرين من الناظمين وقرّاء الشعر . بيد أننا نقول ما نعتقده الحق وليس يعنينا بعد ذلك أن نكون أرضينا الناس أم أسخطناهم .

يطالع القارئ كتابًا من كتب الأدب القديمة فيروعه أن يرى شعر المدح المصنوع مكدسًا تكديسًا ، وشعر المدح فى الواقع من ضروب الشعر المحرّمة إذا قيل عن صدق وإخلاص وصيغ فى خيال وصور فنيّة تستطيع البقاء وتقوى على الخلود فى عالم الأدب . ولكنك ربما لا تلقى كثيرًا ذلك الشاعر الذى كتب شعر المدح الصادق فى هذه اللغة ، وإنما كثيرًا ما تقع عليه من ذلك الضرب من الشعر هو صور من الضعة والصغار ، ونماذج من القلوب المعفرة فى رغام الضلالة

وهى لا تشرف الأدب العربى على الإطلاق ، وإنما هى تسىء إليه كل الإساءة . فليس فيها ما يمتع الروح والمشاعر ، وليس فيها ما يملأ العقل والفكر ، وهى لا تصمد لنقدنا الذى سنحاول به أن نجلو حقيقة الشعر وننفى عنه الزيف .

والذى يعجب له المرء أن شعراء يعيشون فى زمننا هذا لا يزالون على إخلاصهم للقديم فى كل شىء حتى فى المديح ، فهم إذا مدحوا افتتحوا قصائدهم بغزل موهوم فى شخص حسناء خيالية ثم ذكروا ما يعانونه فى سبيلها من الشحوب والألم و . . . و . . . و . . . حتى يتدرجوا إلى التحدث عن فاقتهم وذلتهم ويستعطروا شآبيب خيرات الممدوح .

فإذا أغضينا عن ذلك التدلى وأهملنا هذه النفوس فكيف نهمل هذا التفكك فى نظم القصيدة ، ونحن نعلم اليوم أن للقصيدة وحدة يجب أن تشملها جميعًا ، ولكنهم مع هذا شعراء . . . !

وأعجب من هذا أننى قرأت ديوان شاعر وقد أخرجه للناس فى هذه الأيام فرأيته يفتتح قصيدة له فى «عيد الوطن الاقتصادى» بهذا الغزل الموهوم ! ولقد انتقدت هذا التصرف منه بشدة حينما عرضت لديوانه بالنقد فى مجلة «الإمام»[1] .

(١) مجلة الإمام ، كانت تصدر عن دار «أبوللو» فى الثلاثينيات .

وصدق الإحساس من ألزم الأمور فى قرض الشعر ، ولكننى كثيرًا ما أصطدم بالذين يسمون أنفسهم شعراء يصيغون الشعر فى كل مناسبة ، وعند أى طلب ، وللمرء قلب واحد ولا أدرى كم قلب لكل فرد من هؤلاء !

أكتب هذه الكلمة وقد فرغت من مطالعة قصة شعرية لتاغور شاعر الهند العظيم عنوانها «لعنة عند الوداع»
وما زلت أحس لها صدى يغمر نفسى ويجعلنى أسمو بإنسانيتى الحقيرة إلى عوالم خيالية عذبة ، ولعمرى لا أدرى كيف سحرنى هذا الشاعر العظيم ، وبأى نفوذ غريب اقتادنى برغمى إلى دنياه التى أبدعها خياله الفياض فى هذه القصة الساحرة . إن هذه القصة تذكرنى بقصة «أنديميون» للشاعر جون كيتس – تلك القصة الشعرية السامية التى يمتزج فيها الشعور الحى باللذة الذهنية العالية .

ألا إنّ هذا هو الشعر السامى ، وليس كذلك الشعر الذى ينظمه الببغاويون عندنا فى كل المناسبات .

فالشاعر فى هذه الدنيا رجل منها وليس منها ، يغرد أغاريده السامية فتسمع السماء لحن الخلود فى الأرض الفانية .

* * *

على ضوء هذه النظرات تتقدم اليوم لنقد دواوين لشعراء طار صيتهم فى هذا الشرق العربى ، وأصبحت لهم مدارس وشيع وأنصار ، ولا ريب فى أن شعرهم حقيق بالنقد ، جدير بالكتابة عنه فى دقه وأمانة ، وهو يستأهل الجهد الذى يبذله الناقد فى دراسته وليس شأنه كشأن تلك المنظومات الغثة التى يتقدم بها أصحابها فى مسوح الخدم والعبيد ، على أنها من صميم الشعر وعيونه ، وما هى فى الواقع سوى سبة للشعر العالى الخالد .